﴿ شوقي والمسرح العربي ﴾

« خطاب الدكتور اسعد بك الحكيم »

ليس الملك الجبار الذى يكتسح البلاد ، وتعنو له الرقاب ، باعظم شأناً في حلبة التاريخ : من عالم يبدد بحكمته أضاليل العالم ، فيخرجهم من الظلمة الى النور ، أوأديب يسحر بيانه الألباب فيكيفها على صورته ومثاله . أو شاعر يلتقط برقته حبات القلوب فينظمها عقوداً يسمو بها الى الفضيلة والمجد ، وينفخ من روحه في سويداء النفوس فيبعث فيها روح الامل ، فتنشط وتجد .

وليس البنيان الضخم الشامخ ذو الأحجار الكبيرة الذي تضافرت على تشييده الوف الأيدي البشرية سنين وأحقابا ، فعارك الدهر وهزئ بحوادث الطبيعة ، بادعى الى الخلود من بيت شعر حوى حكمة بالغة همس بها قلب شاعر فسارت بتلاوته الركبان وتناقلته الألسن وصار حديث الناس على اختلاف الأزمنة والأجيال . بل هذا خير وأبقى لان مصير المادة الفناء . اما الروح فهي خالدة باقية الى الأبد .

وفي هذا الاجتماع الحافل ، وما يقام من حفلات التكريم لذكرى شوقي الشاعر بعد موته في سائر أقطار العالم العربي ، دليل ينطق بسمو العظمة الادبية وخلودها وباستمرار حياة الأديب بعد موته لأن روحه المتقمصة في طيات مؤلفاته تظل حية باقية تشع من تلك الحروف القائمة فتتأثر بفعلها نفوس الناس جيلاً بعد جيل الى آخر الدوران .

وكأن السلف أدركوا ما للبنيان الأدبي من الميزة على البنيان المادي فأجدوا في تشييده نفوسهم وبذلوا لإقامته كل ما أوتوه من مال وقوة وسلطان فخلدوا بعملهم هذا ذكراً لم يزالوا أحياء به على غابر عهدهم . ذكراً هو التراث العظيم الذي نفخر به ونحترم لاجله .

ومن بواعث الأسف ان الدهر لم يفسح في أجلهم ليضربوا بسهمهم في جميع صنوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأدب المعروفة عند من تقدمهم من الأمم فعلهم بالعلوم العقلية والطبيعية فجاء أدبهم على مافيه من روعة وسعة وجمال أبتر من احد جوانبه . وذلك لان النقلة لاسباب نفسية اجتماعية ودينية لم ينقلوا الى العربية كتب الأدب اليوناني كما نقلوا اليها علومهم وفلسفتهم فخفيت على رجالها ضروبه وأهمها التأليف المسرحي الذي يعد اليوم من دعائم الأدب ومقومات الاجتماع .

وقد نال الفرنج من العربية بان عابوا في أدبها هذا النقص الذي لا مبرر لاستمراره مئات السنين حتى العصر الأخير اللهم الا الانحطاط الذي أصاب الخلف في جميع مقوماتهم الحيوية فأقعدهم عن مجاراة الأمم المعاصرة لهم وجعل منهم أمة خائرة القوى متبلبلة الكلمة والمذاهب .

وقد حاول عدد يسير من أدباء القرن الأخير اكمال هذا النقص فوضعوا عدة روايات مسرحية جاءت من حيث النسج الأدبي رقعة في ذلك الثوب الناصع ، فلم تجزها العربية ولذلك لم يكتب لها الخلود .

وهكذا ظل الأدب العربي خلواً من المؤلفات المسرحية المثلى أحقاباً وعصوراً الى ان قيض الله له في هذه السنين الأخيرة فناناً يجيد الوصف والرصف يبدع من القديم جديداً ، وهبته الطبيعة الشعرية نفسها فدانت له طوعاً ، وحبته شقيقتها المادية بكل ما فيها من رونق ونضارة وجمال فراح يجمع حلالاً مابين الأختين . هذه توحي وتلك تتلو ، هذه تعزف وتلك تغرد ، فيؤلف من صوتيهما قصائد أوابد تحلى بها صدر العربية بعد ذلك العري الطويل .

ذلك شوقي أيها السادة وحسب القول في شاعريته مبايعة الامة العربية اياه وهو حي بإمارة الشعر في ذلك المحفل الملكي الفخم الباهر ، مما لم يسبق مثله لشاعر قبله قط .

وبينا العربية تتقدم لتعقد لشوقي لواء الإمارة في الشعر حانت منه التفاتة الى أدبها فشام فيه ذلك الخرق المعيب ، فشق عليه ان يمر به دون ان يمد لرتقه يداً ، فطلع على المسرح بمصرع كليوباترة ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلي بك الكبير ، وعنترة ، واميرة الاندلس . فملأ بها ذاك الفراغ وأتم ذلك النقص فأسدى بعمله هذا للعربية مفخرة لم تكد تعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العدة لشكره عليهـا حتى غادرها الى عالم الخلود ولسان حاله يقول : اليوم اكملت لكم أدبكم فقروا عيناً .

تقدم شوقي الى المسرح برواياته فلم يلق من رجاله من الحفاوة بها والاقبال على تمثيلها ما كان يرجى ويظن . وذلك لاسباب منها مايتعلق بالبيئة وهي الحقيقة ومنها ما هو منبعث عن الرواية نفسها .

فمن الاولى : تطور الثقافة الاجتماعية في البلاد العربية واتجاهها نحو اقتباس كل ماهو غربي وخلع كل ما هو شرقي . بصرف النظر عما في بعض الاول من مضار وعما في بعض الثاني من منافع . فهي قائمة على الفلسفة الجنسية الفرويدية الحديثة . تمج القديم لما فيه من قيد ، وتصبو الى الحديث لما فيه من إباحة . ولما كان في مسارح التمثيل الهزلي والخلاعي مايخمد المراقبة ويعلل الحصر القائم في النفوس أمسى الاقبال عليهـا بالغاً أشده . خلافاً للمسرح المحافظ فان الاقبال عليه ضئيل . وقد لا يسد دخله خرجه .

ومنها كون الأسلوب الشعري المسرحي طريف لم يألفه بعد السمع فلا تنفذ صوره الى القلب تواً بل تجتاز اليه الذهن قبلاً . وهذا يضعف تأثير الوقائع في النفوس .

ومنها حداثة عهد الممثلين بالتخاطب بلغة الشعر وضعف خبرتهم الفنية والعلمية والأدبية مما يلقي الفتور في انتباه المشاهدين .

تلك لعمري عوامل جلى من شأنها الحط من قيمة اي رواية مسرحية مهما بلغ بها الاتقان .

فلا غرابة والحالة هذه اذا لم نجد غواة التمثيل ورجاله يعرضون روايات شوقي في كل قطر عربي شأنهم مع غيرها من الروايات النثرية .

على ان هذا الفتور عارض وقد لايمضي قليل حتى يتحول الى ولع وهيام ، وذلك لان روايات شوقي لقيت من غواة الأدب وطلاب المدارس والفئة المتعلمة من الناس تهافتاً عظيماً على قراءتها وحفظها واقتنائها حتى أضحى يخجل كل انسان متعلم ان يقول انه غير مطلع عليها . وتلك لعمري ميزة سوف تضطر رجال المسارح في جميع الاقطار العربية الى إجهاد النفس في حفظها وإتقان تمثيلها كما انهـا ستحدو برجال الشعر الى خوض هذا النوع من الأدب والسمو به الى المكانة العليا التي تتطلبها فائدته وشرفه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما الاسباب الناشئة عن ذات الرواية فأهمها متعلق بضعف الإجادة في تصنيف الحوادث وتوقيعها وفي البلاغة الروائية التي من شأنها امتلاك مشاعر المشاهد وهزها .

وتلك هنات فنية لم يكن شوقي ليقع فيها لو أنه صعد المسرح قبل الخمسين وعانى بنفسه تلاوة قصيدة من قصائده في مجتمع عام ولو مرة واحدة .

هنات تتلاشى في جانب ما في تلك الخرائد من تهاويل الصور النفيسة والطبيعية ومن الإبداع في الوصف وفي تمثيل المجالس واستطراد الحديث وضرب الأمثال وايراد الحكم والمغزى الأخلاقي السامي مما يفوق حد الاتقان .

وكأن انتصار شوقي الباهر في حلبة الشعر وعقد إمارته له في مضماره أثار حفيظة بعض منافسيه فاستغلوا موقفه هذا فنالوا منه على المسرح ما لم تنله قرائحهم منه في ميدان القريض . فرموا رواياته بمر النقد ولو أنصفوا لقالوا : إنها خير ما أُخرج للناس . مكروا ومكر شوقي فلم يفت نقدهم في عزيمته فراح يخرج الرواية تلو الرواية كأنه شاعر بان ساعاته باتت معدودات وان المثل الأعلى الذي تسمو اليه نفسه مازال بعيداً فليس له ان يضيع لحظة فيما هو أدنى وأحط . وذلك المثل الاعلى هو سد ثلمة الأدب والسمو به الى الكمال .

ولم يقف الولوع بخدمة الأدب العربي بشوقي عند حد التمثيل بل تعداه الى الموسيقي فراح يغذيها من تلك الشاعرية المذابة بالحب والجمال بأغاريد عدها بعض الكتاب بدعة محطة بالشعر ورأى فيها الفنانون والادباء وعلماء النفس ابداعاً او ظاهرة تنم عن عبقرية ونبوغ . فشوقي أيها السادة نابغة عبقري ليس بقصائده بل برواياته وأغاريده .

فيا أيتها الروح الذكية التي ترفرف الساعة في سماء هذا المجمع منتعشة لذكراها قري عيناً ، فأنت لم تنسلخي عن ذلك الجسد البالي الا لتتجردي لما هو أسمى وأعم ، الا لتمتزجي بلبن المرضع وأغرودة الطفل ، ومخيلة الصبي وذاكرة التلميذ . فينشأون غداً وكلهم شوقي بلغته ، شوقي بأدبه ، شوقي بمبادئه ، شوقي بغيرته على أُمته .

ولعمري ذلك هو النصر والفتح المبين . تلك هي العظمة الحقيقية ، هذا هو الخلود .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net